صورة المدينة في الشعر الفلسطيني المعاصر*

د. إبراهيم عبد الرحمن النعانعة**

*تاريخ التسليم: 2015/7/29م، تاريخ القبول: 2015/9/16م.
**أستاذ مشارك/ جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

ملخص:

يتناول البحث قضية مهمة تتمحور حول علاقة الشاعر الفلسطيني بوطنه، ومدى تلاحم مشاعره وأحاسيسه مع معاناة وطنه بعد احتلاله وسلب إرادته، ويستعرض مواقف عديدة لشعراء فلسطينيين، عاشوا هموم وطنهم، وتألموا لآهاته وأوجاعه، فأصبح الوطن لديهم رمزاً للوجود والبقاء والصمود أمام كل التحديات، وأصبح شغلهم الشاغل، فغدا الشاعر الفلسطيني يتغنّى بهذا الوطن، ويعزف على أوتار جروحه .

ومن خلال هذا البحث نستطيع أن نتلمّس قوة الارتباط بين الشاعر الفلسطيني ووطنه، ونستطيع كذلك أن نرسم تلك الصورة التي رسمها الشعراء الفلسطينيون لوطنهم، تلك الصورة التي تعالج آلام وأوجاع الوطن وأهله .

وأخيراً كشف البحث عن محور مفصلي أساسي يوضح الوحدة العضوية بين الشاعر ووطنه، وكيف طغت أحداث وطنه على عواطفه كلها، ولذلك يتساءل المرءُ منّا عن كل ذلك بقوله: هل استطاع الشعراء الفلسطينيون نقل هموم وطنهم بصورة لائقة ناصعة ؟ أم أن الغموض يكتنف ذلك المشوار الذي رسموه في حياتهم ؟

الكلمات المفتاحية: المدينة، الشعر الفلسطيني المعاصر، الشاعر الفلسطيني، الوطن

Image of the town in Contemporary

Palestinian Poetry

Abstract:

This paper deals with an important issue that revolves around the relationship between the Palestinian poem and Homeland. It shows how close the poem in his feelings to his Homeland following the Israelis occupation. The paper highlights many stands of Palestinian poems who lived their Homeland's suffering and reflected this agony through their poems.

The paper has shown a pivot axis represented in the integration of the poem with the poet's Homeland. The question remains : Have the Palestinian poems shown clearly their Homeland's or have their poems been obscure ?

***Key words**: town, Palestinian Poetry, contemporary*

مقدمة:

تبدو علاقة الشاعر الفلسطيني بمدينته المحتلة ذاتَ أبعادٍ إيجابية مبنية على أُسسٍ من الودِّ والمحبة والإخلاص، وليستْ علاقة تناقض أو تنافر، مَن هنا نراه يتّحدُ بمدينته، ينطق باسمها، وينافح عن قضاياها وهمومها، لأنها تشكّل قضيّة مصيرية في نظره، فهي أرضه وموطنه الذي ضمه بين جناحيه، ومع ترابه الطاهر المقدّس نشأ وترعرع، ومن خيراته ومائه تغذى، هذا الوطن بمُدنه وريفه يُعَدُّ أُماً للفلسطيني، وهل من الطاعة أن يعقَّ الولد أو الابن أُمّه ؟ .

إنّ الواجب المقدّس يملي على الابن أن يدافع عن الأُم (الأرض) بكل طاقاته و إمكاناته، لأنّ التفريط بها أو التقاعس عن نصرتها ضربٌ من التمرّد على الطاعة الواجبة والحقوق المشروعة .

لقد تعرّضت المدن الفلسطينية إلى مخطط صهيوني يسعى إلى تهويدها وطمس معالمها الحضارية الفلسطينية، والعربية، والإسلاميّة، والإنسانيّة، وغدتْ هويتها هدفاً للتشويه[1]، وإذا وقف الشاعر الفلسطيني مكتوف الأيدي فإنّ مصيره مهدد بالخطر من عدوٍّ لئيم، تمرّس على القتل والتعذيب، والغطرسة بكل ألوانها، تراه يفتح فاهً كل يوم لابتلاع المزيد من الأرض .

ونشير هنا إلى أن الشاعر الفلسطيني قد أدرك خطورة الموقف، فهبّ منافحاً عن مدينته وريفه وباديته بالكلمة المؤثرة في نفوس الناس، فيلهب بها قلوب الجماهير . ويستثير مشاعرهم وأحاسيسهم، ومع ذلك فقد يشكّك بعض الناس في جدوى هذا الشعر المؤثر، ويقول: ما الأثر الفاعل الذي تركه الشعر في الأرض المحتلة في التحول والتغيير ؟ وما طبيعة الخدمة التي يقدمها الشعر لجرح نازف، وقلوب مكلومة، ونساء ثكالى بفعل هذا المحتل ؟ ببساطة شديدة أقول : إنّ الشعر لا يمتلك عصاً سحرية تقود الجماهير إلى الثورة في الزمن الذي تُلقى فيه القصيدة ؟ فقد تفعل فعلها في الزمن المناسب، بعد أن تمرّ زمناً معيناً، وتتجاوز ظرفاً محدّداً لا تصلح معه الثورة أو المقاومة، ولكنها مع ذلك الوقت لا تموت، وإنّما تبقى تمور في الأعماق، تغلي وتشتد إلى أن تختار الزمن والمكان المناسبين لتفريغ هذا الحماس وهذا الهمّ، وقد يتعانق هذا الأثر الناجم عن الكلمة أو القصيدة الشعرية مع تأثيرات أخرى، فينفجر لحظة مجيء المخاض ويتحقق هذا الأثر على أرض الواقع [2] .

ونتيجة لهذه الخصوصية التي تميّزت بها المدينة الفلسطينية، فإنها تعكس صورة مغايرة تماماً لصورة المدينة العربية خارج الأرض المحتلة في تجربة الشاعر، ومن هنا فإنّ الخطر الذي يهدّد الوطن الفلسطيني المنتزع من الشاعر الفلسطيني جعله يسمو بعلاقته في المدينة على مستوى البعد الرومانسي والاجتماعي، بكلِّ ما تحمله الكلمة من ملامح الرفض والغربة والنفور، ليتوحد هذا الشاعر الفلسطيني مع وطنه، ريفاً وبادية ومدينة، فيدافع عنها معانقاً روحه وأنفاسه الطاهرة إلى أن يتحرر الوطن والإنسان من براثن المغتصبين[3].

من هنا لا بدَّ أن نتذكر أنّ ظروف العرب في المحتل من أرضهم، – حيث كانت جميع المدن الفلسطينية وما تزال تتعرّض لمحاولات التهويد وطمس الهوية العربية، ومعالم هذا الانتماء – أثارت في نفوس الشعراء روح التحدي والمقاومة . ونبهتهم إلى ضرورة النظر إلى هذه المدن باعتبارها رمزاً للوجود العربي في الأرض المحتلة[4].

إنّ الحديث عن المدينة المحتلة يثير قضيّة الانتماء للأرض، فأعطاها بعداً وطنياً لم تكتسبه مدن أُخرى، وأصبحت كياناً واحداً من الإنسان والمكان الذي يرتبط بقيم اجتماعية حضارية وأبعاد إنسانيّة، ويشكّل هذا الفهم قمّة الوعي الحضاري والوطني لها[5].

♦ **المدينة في شعر راشد حسين:**

في هذا البحث سنلتقي مع نخبة من شعراء الأرض المحتلة ممّن برزت صورة المدينة في أشعارهم، لاستجلاء مواقفهم وكشف أبعاد المدينة لديهم، ومن هؤلاء الشعراء راشد حسين[6] الذي أحبَّ وطنه وعشق ترابه، فحبه لقريته (مصمص) لم يمنعه من حب المدن الفلسطينية الأخرى، ولذا كان راشد حسين يحمل في نفسه إخلاصاً شديداً لوطنه الجميل حقاً، وتعلّقاً حميماً بعناصر هذا الوطن ومظاهره – الناس، والقرية، والمدينة، والأرض – وبخاصة وهو يلمس أنّه يتعرّض للتشويه والتهويد، ولذلك لم يكن حبّه لـ (مصمص) أنّها مسقط رأسه وحسب، وإنّما يحبها لأنّها تمثّل رمزاً للقرية في الوطن الذي أحبه، كما يحب حيفا، ويافا، وعكا[7].

ويظهر توحّد الشاعر بالوطن من خلال المحاورة التي يعقدها مع محبوبته، وفيها يسمو حبّه للأرض على كل حب للأنثى، فإذا كان حبّه للفتاة ذا درب واحد فقط، فإن للوطن في قلبه مئة مدخل[8].

لقد تمثّل راشد حسين حبّ الوطن فغدا يسري في عروقه كالدّم المنساب في شرايينه، فحب الوطن عنده مقدّس لا يقبل المساومة فهو عصب الحياة وعمادها .

يقول راشد حسين مفضّلاً حبّه للوطن على حبّه لمحبوبته في قصيدته (هي وبلادي): [9]

قالت سألتك بالغرام الأوّل ... أجميع قلبك لي، وكل هواك لي ؟
فأَجَبْتُها خطأً ظَنَنْت، فموطني ... هو من فؤادي في المكان الأوّل
قالت : أتقسو، هكذا يا شاعري ؟ ... ارحمْ، فقلتُ : رحمتُ لو لم تسألي
للحبِّ نحو القلبِ دربٌ واحدٌ ... ولموطني في القلب مائة مدخلِ

ويعمّق راشد حسين ارتباطه بالوطن من خلال تعلّقه بطفولته المحبّبة في مدينة (حيفا)، ويصور مشاعر أهله على أنّها حالة إنسانيّة، من خلال دفء الإحساس الطفولي في صدق وحميميّة وعفويّة، ومن هنا فإنّه يمثّل الريادة في الكشف عن مثل هذه المواقف والمحاولات الإنسانيّة في حياة النكبة [10].

فها هو شاعرنا راشد يخاطب (حيفا) ويثمن عودة الحياة العربية إليها من خلال عودة طفولته فيها، فيقول في قصيدته (قصيدة إلى حيفا) [11] :

في صَدْرِكِ الدافئ طفولتي القصيرة أزْهَرَتْ
وكما يتبخّرُ ماءُ بحرك في الهواء، تبخّرتْ
لكنْ تعودُ مياهُ بحرِكِ إنْ سماؤكِ أَمْطَرَتْ
وأنا لماذا لا تعودُ مع الشتاءِ طفولتي

وحينما حصل راشد حسين على تصريح لزيارة مدينة (القدس)، صَوَّرها محبوبةً من نوع آخر يتعلّق بها تعلّق الطفل بأُمه، وينتهي مفعول تصريح السّفر ليضطر إلى مغادرتها، فلا يرتوي من حبّها ولا يشبع، [12] ويزدادُ شوقاً إليها، فيبثها حبه قائلاً :

أمدينة الزيتونِ زيتون الهوى أثمرْ
لمّا بسطتِ على فؤادي زندكِ الأخضرْ
وعصبته بلظى محبّةِ فارسٍ أسمرْ
وزرعتِ في قلبي عينين للحبّ[13]

إنّ صورة المدينة الفلسطينية في ذهن الشاعر الفلسطيني تكتسبُ بُعداً أشمل وإطاراً أعمّ من صورة المدينة الحرّة التي لا تخضع للاحتلال والبعيدة عن الأسْرِ والهوان، فالمدينة المحتلة هي الوطن، فالإنسان بلا وطن لا يشعر بدورة الزمن، ولا بسعادة الوجود ودفء الحياة، لذلك فقد زرع الإنسان الفلسطيني وطنه في نفسه، وغذّاه بكل قطرة عزيزة من دمه، وحمله في قلبه حيث أقام وحيث رحل [14] .

لقد صوّر راشد حسين عدداً من المدن الفلسطينية تبعث على الحزن واليأس والقنوط، وتدلّل على ما أصابها من وهن وعذاب، وصور كذلك كيف لحق بهذه المدن ذبول الحياة، وكيف جفّت أغصانها، ليبعث في النفس أسىً ومرارةً، وليدبّ في القلب حزناً، وفي النفس مرارة وعذاباً، فمدينة يافا تتحول من عروس البحر المتوسط، وثغره الباسم إلى مدينة خاملة مهملة، ينسج العنكبوت عليها بيته، ويتجذّر فيها الحذر والكسل، ومع كل هذا فإن الحزن لا يصلُ إلى درجة الانهزام والقنوط، فهذا الألم والحزن يحمل في أعماقه الشعور بالمسؤولية بضرورة تغيير الواقع الجديد البائس، وردّ الحياة الطبيعيّة إلى المدينة المظلومة، فالشاعر يجعل نقمته تمورُ في أعماقه فتحوِّل حزنه إلى حزن واعٍ وفاعل، فتستنبت غراس الغضب في حقول النفس [15]، يقول الشاعرُ راشد حسين :

يافا إذنْ بلا قمرْ
يافا ..... دمُ على حجرْ
يافا التي رضعتُ من أثدائها حليبَ البرتقال
تعطش ..... وهي مَنْ سَقَتْ أمواجها المطرْ
يافا التي كسّرت الأيام فوق هذه الرمال
ذراعها شُلّت ..... وطهرُها انكسرْ
يافا التي كانت حديقة أشجارها الرِّحال
قد مسخت محششة توزع الحذرْ[16]

♦ غزة وبيت المقدس في شعر هارون هاشم رشيد

أمّا الشاعر هارون هاشم رشيد[17] فهو من الشعراء الذين تشبّثوا بوطنهم من خلال حبّه لمدينة غزّة هاشم، فيغنّي لها أسمى الأغاني باعتبارها رمزاً للإخلاص والصمود في وجه الأعداء، هي قصة كفاح لأنها أبيّة، وهي رمز للتفاؤل بمستقبل واعد، وهي أُنثى عذراء طاهرة نقيّة، يقول هارون في قصيدته (غزّة الصّامدة) [18]:

مدينتُنا غزّة الصامدة ... مدينتُنا الحّرة الخالدة
مدينتنا قمّة الأُمنيات ... ومنبتُ آمالنا الصّاعدة
مدينتنا حُلُمُ الخالدين ... وأُنشودة الأنفسِ الماجدة
مدينتُنا قصةُ للكفاح ... وأغرودةٌ عذبةً واعدة
مدينتّنا غزّة الباسلة ... تموجُ بآمالها الفاضلة

ويظهر تمسّك الشاعر بمدينته غزّة من خلال رفضه للذّل والاستسلام والتفريط بها، لأنّها جنّة الله في الأرض، حيث يفتديها بالمهج والأرواح، يقول رشيد في قصيدته (غزّة هاشم) [19]:

إيه يا غزة ..... يا غزّة هاشم ... قد تعلّمنا بأنا لن نُسَالِمْ
إيه يا غزّة ..... يا جنّتنا ... نحن من حولك حصنٌ من جَماجِمْ

وفي قصيدته (يا غزّة)[20] ينعى الشاعر أولئك الذين يحاولون نسيان هذه المدينة، أو يتقاعسون عن نصرتها، فمن يسعى إلى نسيانها أو طيّ صفحتها فهو مجحف بحقها، يدعو عليه الشاعر بأن يُصاب بالعمى، وَبَتْر كفيه وقدميه، لأن غزّة اسمٌ ومضمون يتنفّس الإنسان من خلاله، فهو في الأكباد محمول، وفي الأفواه ملتصق، فالشاعر يتوحّد بوطنه غزّة، ويجعله جزءً لا يتجزّأ منه، لا يستطيع الفكاك منه :

يا غزّة فقئَتْ عيناه
وقُطّعتْ كفاه
وشُلّتْ قدماه
من حاول يوماً أن يجرح اسمك
أو ينساه
اسمك محمولُ في الأكباد
وفي الأنفاس
وفي الأفواه

ويتوجّه الشاعر بعد ذلك إلى مدينة القدس الخالدة ليعزف لها أجمل الألحان والأناشيد، معلناً صرخة مدويّة بأنه لن يترك مدينة القدس تناضل وحيدة، فها هو يسير صوبها ليحرّرها من أيدي الغاصبين، ولا يسير إلاّ ومعه السلاح و مخاطراً بنفسه في مهاوي الرّدى من أجلها، فقد ثار وقدّم وضحّى ولم يكنٍ يوماً متخاذلاً عن نصرتها، ويقول كما يقول بعضهم : للبيت ربٌ يحميه، فليس هذا النهج سبيله، فقد تسمّر قريباً من القدس، رمزاً للثبات والصمود، وأعلن أنّه سيناضل من أجل مدينته ويموت شهيداً من أجل عيونها، يقول رشيد في قصيدته (للقدس) [21]:

أنا في القدس ما زلتُ
أنا في القدس قاتلتُ
أنا والنار تأكلني
على جمراتها ..... سرْتُ
وقدّمتُ وضحيّتُ
أنا ما قلتُ
ربُّ البيت يحميه وَسَلَّمْتُ
ولكنني تَسَمَّرْتُ
هنا
مهما يكن أمري
ومهما يَعْصِفُ الموتُ

ويقول رشيد كذلك [22]:

لعينيها
مدينتي التي سُجِنْت
لمسجدها
لأقصاها
لها
للقدس وهي تئن
تحت سنابك الحقد
لها ..... للقدس
في الأسْرِ المُذلّ

إنّ الحديث عن المدينة المحتلة مرتبط بالحديث عن مظاهر الطبيعة، ممّا يؤكد على عدم وجود فجوة بين الريف والمدينة، فالقضيّة ليست كذلك، بل هي أكبر، إنّها قضيّة أرض أينما كانت، وهذا الفهم من القضايا التي تميّزت بها رؤية شعراء المقاومة العربيّة في الأرض المحتلة للمدينة الجريحة الأسيرة [23].

♦ محمود درويش والوطن :

نرى التمسُّك الكبير عند الشاعر محمود درويش[24] بأرض

وطنه قرية كانت أم مدينة[25]:

وطني ليس حُزْمَةً من حكايا
وطني ليس قصة أو نشيدا
هذه الأرض جلد عظمي
وقلبـــــي
فوق أعشابها يطير كنحلةْ
عَلِّقوني على جدائل نخلةْ
واشنقوني فلن أخون النَّخلةْ

إنّ توحّد الشاعر الفلسطيني بأرضه قرية كانت أم مدينة، ورؤيته المشتركة لأبعاد القرية والمدينة له ما يبرّره، فمن الجانب الجغرافي لا توجد مسافات شاسعة بين القرية والمدينة، ممّا جعل وجود القواسم المشتركة تطغى على التقاطع أو الفواصل والمفارقات، فهناك توحُّدٌ في الأسلوب العمراني، والاجتماعي، والعادات، والتقاليد، والتقدّم الحضاري بما جعل التشابه والتقارب كبيراً، أمّا في الجانب المصيري فهناك توّحدُ أيضاً، فالقرية والمدينة على حَدّ سواء تتعرضان إلى مخطط صهيوني لابتلاعهما، لذلك نجد هذه الرؤية المميّزة لأبعاد صورة الوطن (القرية والمدينة) في نفوس الشعراء الفلسطينيين، فالشاعر محمود درويش نجده يتوحّد مع وطنه (القرية والمدينة) فهي جلد عظمه، وما أجمل هذا الأمر وأروعه! فالجلد هو الطبقة الحامية للعظام، فإذا تعرّى العظم وساخ الجلد ترك خطراً عظيماً على عظم الإنسان إلى درجة الموت، وللجلد دلالة أخرى فهو النسيج الحي الذي تتركز فيه الأعصاب، ومن هنا ندرك قيمة الوطن بالنسبة لشاعرنا درويش، فها هو يصف قلبه بأنه طير من طيور الوطن ينتقل فوق الأعشاب والأشجار الخضراء العالية، وهذا هو المكان المناسب له، ولنتخيّل أن الأعشاب والأشجار قد أُزيلت فهل تبقي للطير بيئة مناسبة ؟ لا، لأنّ من مستلزمات حياة هذا الطائر عُشّه .

من هنا ندّرك تمسك الشاعر درويش بوطنه، فلن يخون هذا الوطن، ولو أدّى ذلك إلى موته ونهايته، لأنّ وطنه هو بيئته التي على أرضها يتحرّك ويفرح وينعم بالحياة وفي أحضانها يتشرّف بالموت .

وفي قصيدته (سرحان يشرب القهوة) يتوحّد درويش بالأرض حينما يتحدّث عن القدس التي تمثّل رمزاً للمنعة والقوة والتجذّر في نفسه فيقول [26] :

من الصَّعْب أن تجدوا فارقاً واحداً

بين حقل الذّرة

وبين تجاعيد كفّي

ولكنها وطني

ويتمسّك الشاعر درويش بمدينته المحتلة حيث وجد أنّ الموت سبيل الحياة والخلاص، لذلك ارتفعت المدينة لتصبح هويّة وانتماء، فعن طريق الموت تجد الحياة في الجمادات وظواهرها الماديّة المختلفة، و تصبح جميلة رائعة ترتدي ثوبها القشيب، ثوب العزّ والتقدّم والتحضّر والمنعة[27] .

وفي قصيدته (قاع المدينة) يؤكد درويش على فضائل الموت من خلال هذه الكلمات : الموت، الدّم، الصليب، وتبرز في هذه القصيدة ثنائية الحياة والموت، الحياة القاسية وربما الذليلة المعزوزة من التمسُّك بالحياة نقيض الموت، الحياة الكريمة المعزوزة من طلب الشهادة والموت، وتتحرك قصيدته هذه في إطار هذه الثنائية التي نلمحُ من أبعادها أنّ الموت الناجم عن مقارعة الأعداء ومقاومتهم فيه حياة للأجيال الآتية، حياة كريمة حرّة بعيدة عن الذل والهوان[28]:

لولا الموت

كنتُ حجارة سوداء

كنتُ يداُ محنطة نحيلة

لا لون للجدران

لولا قطرة الدّم

شكراً ..... صليبَ مدينتي

شكراَ.....

لقد علّمتنا لون القرنفل والبطولة

يا جسرنا الممتد من فرح الطفولة

يا صليب ..... إلى الكهولة

الآن
نكتشف المدينة فيك

آه، يا مدينتنا الجميلة

♦ ♦ **حب الوطن عند سميح القاسم** :

من يقرأ شعر سميح القاسم يلحظ حب الوطن الكبير الذي عبر عنه الشاعر في مجمل شعره، ففي قصيدته (أصوات من مدن بعيدة) [29] يعبّر الشاعر سميح القاسم [30] عن حبّه للوطن من خلال التعبير عن الأرض بالأم الرؤوم، التي يجدها حضناً دافئا، تملؤه بالحنان والعطف، فيشكوها همّه، ويبث أحزانه لها، وهي تفصح له عن شوقها وحبّها له، وتخبره بأنها تشعر بالغربة ومرارتها كما يشعر هو بذلك . فالشعور واحد والمصير واحدُ مشترك، لذا فالمدينة هي الأم والشاعر ابنها، ومن هنا تغدو هذه المدينة جزءاً من نفس الشاعر ومشاعره وأحاسيسه، وتجدها كذلك مكمّلة لأجزاء كثيرة من حياته وظروفها المختلفة، فهي امتداد الطبيعي، ومتنفسه الوحيد، وكلاهما يتوحّد في الآخر:

جعلتني ابناه من قرون

أرضعتني البقاء

دفّقت في عروقي الدماء

حسناً ..... لا مفرّ

إنني حامل دمها المستباح

ودمي المستباح

حملته ..... وأنا معاً في خطر

فالكفاحُ الكفاح

فعند قراءة هذه المقطوعة الشعرية يبرز التوحّد بين ثنائية أنا الشاعر والأرض أو المدينة، ويظهر هذا من خلال الضمائر المتصلة في الأفعال والأسماء، نحو : جعلتني ابنها، أرضعتني، دفّقت، عروقي، إنني، دمها، دمي، حملته، أنا، ويظهر التوحّد وامتداده بين الشاعر وأرضه من خلال العلاقة الحميمة بين الأُم والابن ؛ فالمدينة اتخذت من الشاعر ابناً لها، واعتنت به وربّته بصورة مثالية رائعة ترمز إلى تربية العرب لأبنائهم على الشجاعة والحميّة والانتماء للأرض، والمدينة رعته وأنشأته وهو فتى، فخلقت في نفسه الإباء ورفض الذل فكانت نشأته مبنيّة على العزّة والكرامة، حتى أنّه يَعُدُّ ما تتعرض له مدينته من خراب وضياع هو نهايته وضياعه وفقدان أمله المنشود .

وتأتي النتيجة الحتميّة، وهي كيف يحافظ الشاعر على مدينته المحتلة ؟ هل بِعقّها بعد هذا الارتباط الأزلي الرائع ؟

الجواب الحتمي والمنطقي والشرعي، هو الدفاع عن هذه المدينة بالكفاح، ولعل هذه الثنائية بين المدينة والشاعر تتعدّى الجانب أو المستوى الخاص إلى المستوى العام، فلم تَعُد المدينة الفلسطينية هي قصد الشاعر وهدفه فحسب، بل تتعدّى هذه الخصوصية لتشمل الوطن الفلسطيني، وكذلك لم يتحدّد الشاعر بذاته ليدافع عنها، بل ينسحب ذلك من ذات الشاعر إلى آفاق القوميّة، لتكون الأرض الفلسطينية هي الأُم، والشعب الفلسطيني والعربي هو الابن .

ويظهر تمسّك الشاعر سميح القاسم بوطنه من خلال الرسالة التي أبرقها إلى الشاعر محمود درويش، حيث دعاه إلى الخروج من وطنه واللجوء إلى بيروت، وفيها يرفض الخروج من وطنه، ويتمسك بترابه فهو الأغلى من كل الحياة التي يعيشها أهل بيروت على الرغم من رغدها.

يقول شاعرنا سميح القاسم في قصيدته (إليك هناك حيث يموت) [31] :

إليك هناك حيث تموت كالشمس الخريفية

بأكفان حريرية

إليك هناك يا جُرحي ويا عاري

إليك إليك من قلبي المقاوم جائعاً عاري

تحياتي وأشواقي

ولعنة بيتك الباقي

وفي هذه المقطوعة تلقي الثنائية بظلالها بين طرفين متناقصين، ويوظّف الشاعر بينهما بعيداً عن الزينة اللفظيّة، مُسْتغلاً كليهما لخدمة غرضه وهو التمسّك بالأرض وافتداؤها والتضحية في سبيلها، وهذه الثنائية تتشكل بين الأنا والأنت على النحو الآتي : بيتك، إلي، وجرحي وعاري، قلبي، ولو عدنا لاستجلاء الغرض المقصود من هذه الثنائية فإننا نستطيع التوصّل إلى صورتين متناقضتين لهذه الثنائية، إحداهما إيجابية مشرقة، والأخرى سلبيّة سوداويّة، وتتمثّل الصورة الإيجابية في الأنا المتمسّك بأرضه ووطنه ورفض الخروج منه، على الرغم من الجوع والعُري نتيجة المقاومة والكفاح، ولذلك نجد شاعرنا يقول : قلبي المقاوم، ليؤكد على تصميمه وعزمه على البقاء والتحدّي .

أما الصورة السلبيّة القاتمة المتمثّلة بالأَنْتَ، الذي ينعمُ برغد الحياة وترفها خارج الوطن المحتل، وتتجسّد سلبيّة الأَنْتَ بأنها جرح الأنا وعاره، ومن هنا فإنه يستحق لعنة بيته الباقي، وهذه العبارة « بيتك الباقي « توحي بدلالات عميقة، وتحمل طاقة تعبيريّة، فالمنزل الذي آواك، وفي أحضانه تربّيْت أصبح اليوم مهجوراً وحيداً يصبُّ غضبه عليك، ويلعنك، لأنّك لم تحافظ عليه وتصُنْ كرامته، والبيت الذي تركته لم يَبْقَ كما عهدته، فقد أوحت كلمة الباقي بأن البيت – هذا البناء المادي – هو الباقي وأنت المنهزم، وفي كلا الأمرين فإنّ هذه الكلمة الظاهرة تخفي في أعماقها نقيضها السّلبي، فالبيت باقٍ وأنت المنهزم، البيت يلعن، وأنت الملعون .

♦ **المدينة المقدسة في شعر فدوى طوقان**:

تعكسُ الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان[32] صورة المدينة المقدّسة في شعرها كثيراً، وقد لفّها الحزن والضياع بسبب الأسر، فأصبحت ثكلى غارقة في دمائها ، فتقول[33]:

يا سيّد، يا مجدّ الأكوان

في عيدك تُصْلَبُ هذا العام

أفراحُ القدس

صَمَتَتْ في عيدك يا سيّد كلّ

الأجراسِ

من ألفي عام لم تصمت

في عيدك إلاّ هذا العام

فقبابُ الأجراس حداد

وسوادُ ملتفُ بسوادِ

في هذه المقطوعة تبرز مأساة مدينة القدس من خلال هذه المفارقة التي يشهدها هذا العام، فقد كانت الأيام مجداً وأملاً مشرقاً، أما اليوم فعلى العكس من ذلك، إذ نرى أجراس الكنائس تُلجم في أعياد هذا العام، وتبعث كل مظاهر التدين الأسى والحزن، فشتان بين ماض تليد، للعيد فيه بهجة، وبين حاضر محزن يبعث على الأسى والشجن، فالصورة اليوم سوداوية قاتمة جسّدتها الشاعرة فدوى من خلال رؤيتها لما آلت إليه الأُمّة من تشتت وتفرق وتناحر، أدى كل ذلك إلى احتلال القدس وأسره، هذا هو طرف المفارقة الذي يجسّده الزمن الحاضر، فهو زمن مشؤوم وقاتم، وصلت فيه الحال

إلى الدرك الأسفل .

بينما الزمن الماضي هو الزمن المشرق الذي شهد أفراح القدس وتغريد أجراس الكنائس، ومن هنا فإنّ رؤية الشاعرة لمدينتها وهي أسيرة مكبّلة بالقيود أثّرت في نفسيّتها، ومشاعرها، ورؤيتها للعالم من حولها، وتعيش هي بين أكنافه، فأدركت أن الخطر يدقُّ ناقوسه كل حين، مما جعلها بائسة متشائمة، وتتجلى هذه الصورة في قصيدتها (إلى الوجه الذي ضاع في المدينة)[34]:

آهٍ يا حبّي لماذا ؟

وطني أصبح باباً لسقر

ولماذا شجرُ التفاحِ صار اليومَ

زقوماً، لماذا ؟

من كلّ هذا نتلمّس حجم المصيبة، وهول النكبة التي جعلت هؤلاء الشعراء يهتفون في كل قصيدة من قصائدهم للوطن والارتباط به، وعدم مغادرته، والوقوف بحزم في وجه كل المخططات، والعمل على تحدي المصاعب بكل ما أُتي المرء من عزم وقوة وإرادة .

وإذا بخل الشاعر الفلسطيني المعاصر في الحديث عن أمور خاصة به، فمرّد ذلك أن همّ الوطن وما حلّ به أكبر من هذا، فهو يرى فيه قضية شخصية تهمّه قبل غيره، ووطنيّة كبيرة تلامس مشاعر الآخرين أمثاله، تجد صداها مؤثراً في الأنفس، بمعنى أصبح الشاعر الفلسطيني المعاصر أسيراً في حب وطنه، ومولعاً في الدفاع عن قضاياه، فما يكاد ينتهي من ذكره حتى يعود مرّة أخرى لينسج من وحي خياله، ومن واقعه المرير قصة أُخرى من قصص حب هذا الوطن، وهذا ما دفعه إلى توظيف كل مشاعره وأحاسيسه للتعبير عما في خاطره من حب وتجذّر لتراب وطنه، ومن حزن وألم لمعاناته

الخاتمة:

إن الدارس للشعر الفلسطيني يلحظُ بكل وضوح أن جلَّ هذا الشعر قد كان تعبيراً عن حب الشاعر الفلسطيني لوطنه الأسير – شأنه شأن كل فلسطيني – فهذا الشعر تعبيرٌ صادقٌ عن معاناة شعبٍ واجه الاحتلال والقتل والتشرد والضياع، فالشاعر الفلسطيني يصوِّر هذه المعاناة ويوضح مدى تأثيرها في نفس الفلسطيني، وكيف زادته إصراراً على التمسك بتراب هذا الوطن، فما تعبير الشاعر الفلسطيني عن تصوير مدينته أو قريته إلا صورة صادقة نقلها بكل أمانة من معاناة أبناء شعبه، وهذا ما أعطى الشعر الفلسطيني وهجاً وتألقاً وانتشاراً، فالصدق أمرٌ رئيس في نجاح الشاعر وتحقيق الهدف الذي يرجوه .

عند قراءتنا لهذا الشعر، وتأملنا في كلماته نجده يرسم صورةً واضحةً محددةً للمدن والقرى الفلسطينية كلها، ويوضح الحزن والألم الذي يخيم على تلك الديار بسبب ظروف الاحتلال، وعدم الشعور بالأمن والأمان، فأصبح هم الشاعر الفلسطيني في كل شعره هماً وطنياً ينقل من خلاله ما يعانيه شعبه، ولذلك تغنّى هذا الشاعر بمدينته أو قريته بوصف شوارعها وحواريها وأهلها وطبيعتها، فهو يجد في ذلك متنفساً قوياً يعبر فيه عما يدور في ذهنه من آلامٍ وأفكارٍ وأحزان، فمن هنا نعد هذا الشعر شعراً شمولياً وطنياً، له سمة عامة تبعد الشاعر عن الذاتية الضيقة، وهذا سرٌ نجاح هذا الشعر، وتذوق الناس له، وحبهم لسماعه والتغني به .

الهوامش:

1. حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية دوره وواقعه في عهد الانتداب، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، ج2، ص14 .
2. حسني محمود، " راشد حسين من الرومانسية إلى الواقعية"، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م، ص174 .
3. كامل السوافيري، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، القاهرة، الأنجلو مصرية، ط1، 1973م، ص18 .
4. كامل السوافيري، الشعر المعاصر في فلسطين، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1975م، ص184 .
5. زهير عبيدات، المدينة في الشعر الحديث، عمان، دار الكندي، ط1، 2006 ص35.
6. راشد حسين محمود اغباريه، شاعر وكاتب وصحفي فلسطيني، من قرية مصمص شمال فلسطين، ولد سنة 1926م، وفي سنة 1969م غادر فلسطين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ليعمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك ولقي مصرعه هناك سنة 1977م إثر نشوب حريق في شقته، ودفن في قريته في فلسطين، له إصدارات حول شعر المقاومة، وتغنّى بفلسطين في أشعاره .
7. حسني محمود " راشد حسين، من الرومانسية إلى الواقعية" الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط 1، 1984م، ص 178 .
8. غالي شكري، أدب المقاومة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط1، 1979م، ص78 .
9. راشد حسين، ديوان مع الفجر، بيروت، دار العودة، ط1، 1998م، ص70 .
10. حسني محمود "راشد حسين، من الرومانسية إلى الواقعية" الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط 1، 1984م، ص 255 .
11. راشد حسين، ديوان (صواريخ) ، دار العودة، بيروت، ط1، 1990م، ص 170 .
12. حسني محمود، "راشد حسين، من الرومانسية إلى الواقعية"، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط 1، 1984م، ص 175 .
13. راشد حسين، ديوان (صواريخ) ، ط1، ص211 .
14. مفيد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، بيروت، ط1، 1980م، ص213 .
15. حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية، ط1، ج2، ص (123–122)
16. راشد حسين، الشعر المقال في الأرض المحتلة، ط1، ص202 .
17. هارون هاشم رشيد : ولد في غزّة سنة 192م، تلقّى تعليمه الثانوي فيها، وزاول مهنة التعليم، سنة 1947م مدة سبع سنوات، ثمّ عمل في مكتبة الإذاعة في غزّة، أقام في القاهرة، من دواوينه : مع الغرباء، عودة الغرباء .
18. هارون هاشم رشيد، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1981م، ص223.
19. المصدر نفسه، ص283 .
20. المصدر نفسه، ص 498 .

21. المصدر نفسه، ص 446 .

22. المصدر نفسه، ص442 .

23. زهير عبيدات، المدينة في الشعر الحديث، ط1، ص66 .

24. محمود درويش: شاعر فلسطيني معاصر، شهد آثار النكبة التي حلّت عام 1948م، له خمسة عشر ديواناً منها: أوراق الزيتون، آخر الليل نهار، شيء عن الوطن، عاشق من فلسطين، حبيبتي تنهض من نومها .

25. محمود درويش، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1970م، ص235 .

26. المصدر نفسه، ص425 .

27. المدينة في الشعر الحديث، زهير عبيدات، ط1، 65 .

28. محمود درويش، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1970م، ص256 .

29. سميح القاسم، ديوانه، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1973م، ص356 .

30. سميح القاسم: شاعر فلسطيني معاصر، عاش حياته في ظل الاحتلال، وبقي ينافح عن تراب الوطن، من دواينه : أغاني الدروب، دمي على كفي، دخان البراكين .

31. سميح القاسم، ديوانه، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1973م، ص464 .

32. فدوى طوقان: ولدت الشاعرة فدوى في نابلس من مدن فلسطين سنة 1914م، وأخوها الشاعر إبراهيم طوقان، من دواوينها : وحدي مع الأيام، وجدّتها، أعطنا حبّاً، أمام الباب المغلق، اللّيل والفرسان، ت 2003م.

33. فدوى طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار الآداب، ط1، 1969م، ص385 .

34. المصدر نفسه، ص412 .

المصادر والمراجع:

1. درويش، محمود، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1970م .
2. رشيد، علي هاشم، شموع على الدرب، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط1 1967 م .
3. رشيد، هارون هاشم، ديوانه، بيروت، دار العودة، ط1، 1981م .
4. الزغل، أشرف ضيوف النار الدائمون، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1999 م .
5. زياد، توفيق، الأدب الشعبي الفلسطيني (دراسة)، بيروت، دار العودة، ط1، 1973 م .
6. زياد، توفيق، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار العودة، ط1، 1971م، ثلاث مجلدات .
7. السوافيري، كامل، الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، القاهرة، الأنجلو مصرية، ط1، 1973م .
8. السوافيري، كامل، الشعر المعاصر في فلسطين، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1975م .
9. طوقان، إبراهيم، الديوان، بيروت، دار القدس، ط3، 1975 م .
10. طوقان، فدوى، الأعمال الشعرية الكاملة، بيروت، دار الآداب، ط1، 1969م .
11. القاسم، سميح، ديوانه، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1973م .
12. قميحة، مفيد، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، بيروت، ط1، 1980م .
13. محمود، حسني، " راشد حسين من الرومانسية إلى الواقعية"، الزرقاء، الأردن، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، ط1، 1984م .
14. محمود، حسني، شعر المقاومة الفلسطينية، ط1، ج2 .
15. المناصرة، عز الدين، الأعمال الشعرية للشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود، دمشق، دار الفكر، ط1، 1988 م .
16. المناصرة، عز الدين، الجفر والمحاورات (قراءة في الشعر اللهجي بفلسطين الشمالية)، عمان، دار البشير، ط1، 1993 م .
17. الوحيدي، جميل عياد، ديوان آلام و آمال، بيروت، دار العلم، ط1، 1985م .